

الوثيقة التبادعية

« من منتج للاستهلاك
الى فنان حياته »

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٧٦

الطبعة الثانية ١٩٩١

رؤيا عن الله والكون نظام سياسي، فن حياة

١

سكان كوكب الأرض، عشية الألف الثالث بعد المسيح،
يمكننا القول انهم اصبحوا واقفين على حقيقتين :

الاولى : أن الانسان قفز قفزة كبيرة صوب معرفة ذاته.
لم يبق يُرضيه ان نُضمن له عيشه وحسب ولا حتى رفاهه

وحسب. اصبح يتطلّب لا أقل من أن يدع أو يشارك في
البَدْع، كأنما هو مزاملٌ لله.

الثانية : تعاسة، اكبر تعاسة، ان تقتلع الانسان من ايمانه
بأنه باقٍ الى الابد. وكيف نريده يتصور الارض، الكوكب
الذي ما كان قد كان، لولا نشاطه هو الانسان، سوى
صخرة بلا قيمة مرمية في الفضاء، هي تبقى الى مليارات
السنين وهو، الذي ثمرها وبدع مدنيّتها، يكف عن وجود
بعد ٧٠، ٨٠، ١٥٠ سنة؟ مع انه ليس في المعقول ان لا
يكون الافضل وجد ليقى أكثر. ان مجرد هذا الشعور،
عصر أخذوا يقدرون الجودة في وجه الكثرة، أعاد الايمان
بأبدية الانسان. مع كل موكبها: اله قادر على كل
شيء، بادع اذن وله السرمدية، والى جنبه : خليقته التي
تكرم أو تدلّ بقدر ما تروح تقرب ان تصير مثله أو
تبعد. وفي اللغة اللبنانية ثلاث مفردات : « سرمدية »،
« أزل »، « أبد » — ليس لها في اللغات الأوروبية إلا مفردة
واحدة — بمستطاعها أن تسهم في توضيح علاقة الانسان
بالله. ان السرمدية، بجزئها الازل والابد، يملكها الله
وحده. الأزل، اعني الماضي الى ما لا حد، لا يملك
الانسان منه ولا ثانية. من هنا وجوب أن يتضع، الى حد

الانمحاء، امام الله. أما الأبد، اعني المستقبل الى ما لاحد،
فيملكه الانسان هو والله معاً. من هنا، بالمقابل، وجوب ان
يشعر بكرامةٍ أجملِ الكرامات .

أن يضارب لا على أقل من أن يبدع ولا يتنازل عن
الايمان بمزاملة الله في انه باقٍ الى الابد، بهاتين الاثنتين
يتحدّد اليوم الانسان. ولربما يكون هكذا، في بعض
الكواكب، كل عاقلٍ راق سوف يلتقيه الانسان.

٢

هذا الوعي كان موجوداً في التاريخ، بشكل ومضات نور.
ومضات النور هذه هي التي جعلت الانسان، حتى فيما
كان يتخبط، يوجد انظمةً سياسية يحكم نفسه بموجبها،
ويمضي خطُ تطورها مع خط وعيه لله والكون.

فلسفة حُكم، أعني رؤيا عن كيف سياسة الناس،
موضوعٌ شغل كل الادمغة الكبيرة، على تنوّع نشاطها :
من تور وفيثاغورس الى لينين وتشرشل، وبينهم المثلث
الاغريقي : سقراط وافلاطون وارسطو، واصحاب النور
الكبير : دانتي وشكسبير وغوته وفاليري، والعقلان غيرُ
العاديين : اوغوسطينوس والاكويني، لكي لا نتكلم على

الذين وقفوا انفسهم على السياسة كمكيا فيل وهوبس. كل من هؤلاء اتخذ لنفسه مُنطلقاً بعينه. وإنما يخيل اليّ ان المنطلق ذا الوزن ينبغي ان يكون السؤال الخالد : « انا، الانسان، باقٍ أم لا، اكثر مما هي باقية ترابٌ وشجرة ونجمة ؟ » سؤال الاسئلة هذا، عن البقاء، يستتبع فكرة وجود من هو رب البقاء : الله. ان العباقرة الذين رصفوا مداميك المدنية، على مدى التاريخ، هزهم اكيداً هذا الموضوع اكثر مما هزهم ما اذا كانوا سينامون على الطوى أو في بيت سقفه يدلّف.

كيف رأى الانسان هذا الخط الآتي من الله صوب الانسان مكملاً طريقه صوب الانسان - الموهبة، هكذا تفتّق له أن يعمل حكوماته.
تعال نمشي مع هذا الخط .

الله، او الاله الواحد، اول ما رآه الانسان رآه قوة وقادراً على كل شيء. اذن هذا الانسان ينبغي أن يكون له ملك يحكمه لا يستهان بما له من قوة ولا بما له من قدرة على كل شيء، ولو انه لا يتسمى احياناً ملكاً. وهكذا بدأنا كلنا ملكيين. اعني مشدودين الى حكم فردي أو شبه فردي، المهم انه دوماً حازم.

ونمضي مع الخط : وعى الانسان انه الى جنب الله يوجد الكون، خليقته المتدرجة من حبة تراب الى مجموعة نجوم. بوحى هذه المعرفة رأى، الى جنب الملك : الوطن. وهكذا صرنا وطنيين. وكنا في بعض الاحايين نلحد او نتناسى الله ولا نعود نأبه إلا للكون، ونعمل حكومات بعيدة عن القيم التي تستوحى القيم الالهية. ونظن اننا اذا هدمنا المَلِك او المحكم الحازم، نكون خدمنا الوطن. لكننا لا نلبث ان نعود ندرك ان الذي تهمة الوطنية لزام عليه أن يستمر تهمة الملكية، كما أن الاهتمام للكون لزام أن يظل مستلهماً الاهتمام لله.

ويواصل الخطان مُضِيَهُمَا : يصبح الانسان عارفاً بأن الكون - الخليقة، افضل جزء من اجزائه، ذروته، تاجه، هو الانسان. بالموازاة، يصبح الانسان عارفاً بأن افضل شيء في الوطن هو الأمة. المتر المربع من ارض الوطن مهم، لكن اهم منه المواطنُ الواقف عليه. ويولد حكم الأمة. وهكذا نُصَبِحُ أمويين أو أنتر أمويين. وهنا، في مرحلة اكتشافنا ان الانسان هو تاج الخليقة، تتعقد متطلباتنا وتتعد الانظمة السياسية التي تطمح الى ارضائنا، ولكنها تظل في روحها واحداً.

والخطان اللذان سيمضيان سيظل الواحد منهما يؤثر في الآخر ويلهمه. الآن، بات ينبغي لنا أن نبدأ نتبين أنه، بعد الانسان، يوجد الذي ليس أيما انسان، يوجد الانسانُ البادع، ذاك الذي خلقه الله ليؤازر الله في استكمال بدع الكون. وهكذا يكون الخط السياسي ماضياً لا فقط صوب الامة التي تُنبت هنا وهناك افراداً بادعين وانما اكثر: صوب الامة المتبادعة. لفظنا كلمة جديدة اشتقناها خاصة لتعبّر عن مفهوم جديد يقول انه ليس بمستطاع الفرد ان يدع، بحق وبسهولة، إلا اذا راح، في كثير أو قليل، يدع معه سائر الناس ويُدع حلمهم معهم وأدواتهم التي هي بدورها يدع، إلا اذا راحوا هو وهم يتبادعون. وان يتبادع الفرد معناها ان يدع نفسه والعمل الذي يدعه والاشخاص الذين هم سواه وأحلامهم وأدواتهم، وهؤلاء جميعاً يعودون بدورهم يزيدونه قُدرةً على التبادع. وهكذا صار ينبغي ان نصبح تبادعيين.

الانسان وهو بدائي يتطلع الى أن « يقنتي ». بعدها يعلو على نفسه فيتطلع الى ان « يكون ». بعدها يعلو اكثر فيتطلع الى ان « يدع ». اليوم اصبح ينبغي له أن يعلو على نفسه اكثر واكثر ويتطلع الى ان « يتبادع », اعجوبة لا

يقدر على اجتراحها إلا اذا عمل هو والناس وأحلامهم
البدع وأدواتهم البدع معاً.

٣

التبادعية، في الاجتماع والاقتصاد، نظام يفرض سيادة
اثنتين : الحرية والجودة، ولا بحال يُحد من الحرية، ولا
بحال تُفضّل الكثرة على الجودة.

الحرية التي بلا حد تفرض على نفسها ان تكون
مسؤولة تجاه نفسها. بعد هذا الفرض الذي تقوم به
اختياراً، (اعني في نطاق الحرية ايضاً)، تعود لا تقبل بأن
يُشرط عليها شرط. هذا معنى أنها بلا حد. ان الوجود
العظيم، الذي منه ينبع كل شيء، هو حرية. بنتيجة وعي
هذه الحقيقة، التي كانت مبدئية ثم برهن عليها التاريخ،
نُدرك ان افضل تفتح للانسان يتم في الحرية. لكي تتبادع
يستحيل ان يلزمك شيء فوق الحرية. وهكذا يستحيل ان
يوجد نظام اجتماعي واقتصادي افضل وادّر على اصحابه
والذ تطبيقاً من نظام حر الى ما لا حد. من هنا ان الوسائل
التي ابتكرها الانسان، في مستهل التاريخ، وخدمته لكي
يمارس حريته بسهولة لا يجوز له أن يرفضها بشيء من

التهور أو من الخفة. مَثَلٌ على هذه الوسائل : المال. إن
تصنيمَ بعضنا للمال، ذاك الذي جعل المال أحياناً يثمر
نفسه لصالح نفسه، يجعل الإنسان زلماً له، هذا لا يجوز
ان يجعلنا نستعين بالمال وبأنه أمرن وسيلة لتسجيل حصول
الجهد الخيّر أو لنقل الجهد الخيّر من مكان الى مكان.
استبدالُ المال بأيّما شيء سواه ردة الى البدائية. المال
كالابجدية : الشعب الذي عملهما كليهما عملهما لا يزداد
عليهما شيء. تُقدر ان تخربط في أصول استعمالهما، لا
تقدر ان تستغني عنهما. ليس من مال أو ابجدية عند
الجماد أو النبات أو الحيوان. والإنسان عمِل المال
والابجدية ؟ المأل والابجدية يقيان للإنسان. واضحٌ من
المالك ومن المملوك. تتغير الأدوار، يتخربط كل شيء.
والحكاية التي يعرفها الصغار لكم يروح غالباً يتناساها
الكبار : بدويّ من الصحراء عثر على قطعة من معدن،
قال : « ويش ريدها » ورماها. وجدها ابنُ مدينة، عمل
منها مفتاحاً ثمنه ليرة. وجدها سويسراني، عمل منها ساعة
ثمنها ٢٠٠ ليرة. وجدها عالم، استخرج منها طاقةً ثمنها
ملايين. قطعة المعدن الصغيرة تلك لا قيمة لها بذاتها،
تصبح لها قيمة وتأخذ تكبير هذه القيمة بنسبة ما يُضاف
اليها انسان. ونستخلص : المال، المال الذي يبقى عارفاً

حدّه، يُعطي التعامل حُرّية هائلة. لهذه، المال خالد. ومثله
الرأسمال وحقّ التملك. ألا فليجتهد الانسان، فرداً أو
جماعة، ليجعل دخله بقدر ما يريد، التبادعية، التي لا تقدر
ان تكون له إلا اذا كانت لغيره، تُدفعه من هذا المال،
لصالح الجماعة، بقدر ما تتطلب اللعبة التبادعية. وهذه
اللعبة، بقدر ما تؤمن خير الجماعة، تكون مؤمنة خير
الفرد. حرية في التعامل لا حد لها، ما مثلها سند لتفجير
الخير. ومن الخير تنغدى الموازنة لتكون قوية، أعني لتقدر
على تنفيذ المُخطط الطموح. والموازنة اثنان : أخذ من
المكان الواجب أن يؤخذ منه، وعطاءً للمكان الواجب أن
يعطى. والتبادعية، التي هي حرية مسؤولة، تجعل المنتج
تلذّه زيادة مساهمته سنة بعد سنة في تنمية الموازنة، اعني
في تنمية تبادل أُمَّته الذي ينبغي ان يوصل الى تبادل أُمَّم
العالم، أعني البشرية التي هي عائلته الكبيرة.

والجودة هي التي ينبغي أن تشمل كل شيء :
الشخص — انتَ والغير — العمل، التعامل، الأهداف وحتى
الاحلام. من هنا ان التبادعية جودة عمومية، للانسان
وللشيء معاً. هي اذن رَفَضُ مجتمع الانتاج للاستهلاك،
رفضُ السرعة التي تُلَهْث ولا تُوصل إلا الى المكان الذي

بيان في النهاية أنه متأخر عن المنطلق، رَفُضُ العمل
الكثروي الذي لا يُتَّقَعُ غَلَّةً. على النقيض من كل هذه
يكون الانتاج الجودوي، ذاك الذي يجودن نفسه
ويجودنك أنت صاحبه. يحوِّلك من مُنتج للاستهلاك الى
فنانِ حياتك. فرِّق، فرِّق كبير، بين أن تضيف الى نفسك
وان تتجودن. التبادعية ليست حركةً ازدياداً، انها بالاحرى،
حركةً كَسْرَ طَوْق، نفاذاً الى درجة في الوجود أعلى. حتى
المعرفة، المعرفة العظمى، تصبح، على ضوء التبادعية،
جَوادات قلب ايضاً: نخوة، وعطاء، ومحبة للكل،
وَصِدْقاً، وقدرة على تَدْوِقِ الجمال، وشجاعة كلمة
خَلَّاقَة، ولفظة تلف الكون وما بعد الكون، ومضاربةً على
لُعبِ شَبِيهَةٍ شَيْئاً بِلُعبِ الله.